

مع هذا العدد تطوي مجلة الآداب عامها الستين (١٩٥٣-٢٠١٢). وقد تولّى د. سهيل رئاسة تحريرها بين عامي ١٩٥٣ و١٩٩١، وتولّيت تلك المهمة منذ ذلك الحين. ولعلّي لا أذيع سرّاً إذا قلت إنّ فكرة تعليق إصدار المجلة، بشكل نهائي أو مؤقت، لم تغادر ذهني منذ أعوامٍ طويلة. لكنّ والدي كان يحثّني على الصبر، ويدعوني إلى التفاؤل بمستقبل القراءة ومستقبل المجلة. وما بين العام ١٩٩١ واليوم، صدرت مجلّات كثيرة، بتمويل الأنظمة، أو الأحزاب، أو المنظمات غير الحكومية، أو نتيجة لتبييض أموالٍ كما يشاع؛ فتوقّفت كلّها تقريباً باستثناء ما أصدرته الأنظمة. لكنني، وبعد سنوات قليلة من رئاسة تحرير الآداب، غدوت أكثر تصميمًا على الاستمرار؛ بل انقلبت الأمور رأسًا على عقبٍ أحياناً: فصار سهيل «يتهم» الحاجة إلى حجّب المجلة، في حين كنتُ أصرُّ شخصياً على الاستمرار بها.

شيئاً فشيئاً تحوّلت الآداب من مشروع سهيل إدريس الشخصي لبناء منبر تحريريّ إبداعيّ عربيّ، إلى مشروعٍ شخصيٍّ أيضاً، فكّرتُ لها جلّ أوقاتي. وكان ذلك طبعاً على حساب تدريبي المهنيّ (في النقد الأدبيّ)، وعلى حساب أدب الأطفال والأحداث الذي شغفتُ به منذ سنة ٢٠٠٣، والأهمّ: على حساب المعجم العربيّ - العربيّ الذي كنتُ قد شاركتُ سهيلاً ود. صبحي الصالح إعدادَه منذ العام ١٩٨٥ قبل أن أنفرد في العمل عليه بعد العام ١٩٩٥. ومع ذلك فإنّني لم أشعر بأنّني كنتُ «أضحّي» معظم ذلك الوقت؛ على العكس: فالآداب هي التي علّمتني كيف أكتبُ، وكيف أقرأ، وكيف أحرّز الموادّ وأخلّصها من زوائدها وترهلاتها؛ وهي التي عرفّنتني عن قربٍ إلى المثات من مثقفي الوطن العربيّ وشبابه وناشطيّه؛ والأهمّ أنها علّمتني - وبتشجيع دائمٍ وحديثٍ من معلّمي الأوّل سهيل إدريس - كيف أضعُ الكلمة في خطّ الدفاع الأوّل عن قضايا العرب العادلة، وعلى رأسها: فلسطين، والتحرّر الوطنيّ والاجتماعيّ، والوحدة العربيّة، وحرية الفكر والتعبير.

في مجلة الآداب صببتُ كلّ كياني. وكانت دار الآداب، وما تزال، ورائي في كلّ خطوةٍ أخطوها في المجلة؛ فالمجلة ليست ابنة الدار فحسب، وإنما هي أمّها أيضاً (تأسّست الدار بعد مضيّ ثلاث سنوات على صدور المجلة). واتخذنا جميعاً القرار، سنةً بعد سنة، بمواصلة إصدارها، وبمدها بما توفّر لدينا من مالٍ وجهدٍ ووقت، حتى ونحن نشهدُ بأنّ أعيننا توقّفت المجلّات الثقافيّة العربيّة المستقلّة الأخرى أو تعثّرها.

كما اتخذنا قراراً آخر: هورفضُ كلّ تمويل خارج دار الآداب. كان منطقتنا يقول أنّ لا معنى لإصدار مجلة ثقافيّة تقدّميّة معادية للأنظمة العربيّة قاطبة، ومشكّكة في أجدات المنظمات غير الحكومية NGOs، بأموال هذه المنظمات أو تلك الأنظمة؛ ولا ثقافة حقيقيّة يمكن أن تنتج من تمويل يعبق

برائحة النفط أو الاستبداد أو الأجناس الخارجية «البريئة». فالتمويل هو أحد أهم العوامل التي تحدّد خيارات الكتابة والنشر، من حيث استراتيجيات الإقضاء والاستيعاب والتبريز: - فهو من العوامل التي تحدّد إن كان علينا أن نغض الطرف عن جرائم الأنظمة ورجعيتها (بذريعة «الأولويات الأمنية والقومية»)، أم نطالب بتغييرها وإسقاطها؛ - وهو من العوامل التي تحدّد إن كان علينا أن نواصل الحديث عن تحرير فلسطين «من النهر إلى البحر»، أم نكفئ إلى شعار «العدالة الانتقالية» و«حلّ الدولتين»؛ - وهو من العوامل التي تحدّد إن كان «تحرير المرأة» و«محو الأمية» و«تشجيع المطالعة» و«حرية الخيار الجنسي» بنوداً من ضمن مشروع عربي تحرري تقدمي شامل، أم هي محض بنود قائمة بذاتها ولذاتها في مشاريع الأن. جي. أوز.

ويوماً بعد يوم، صرنا نفرج على الخسائر المادية تتزايد، فنبتسم بمازوشية. ثم ننظر إلى الأقطار العربية وهي تمنع أعدادنا، فنتيقن من أننا على الطريق المستقيم. إذ ما أهمية ثقافة لا تفضّب الحاكم العربي، ورجال مخابراته، ومشايخه، و«مثقفيه»؟ ووصلنا إلى زمن توقّفنا فيه عن إحصاء خسائر المجلة. بل كدنا نصل إلى معادلة عبثية: خسائر أكثر = حرية أكبر. وهي معادلة جسّدناها عملياً في إجراء قد يبدو جنونياً من الناحية التجارية، ألا وهو حجب الآداب، وبقرار ذاتي من رئيس تحريرها، عن سوريا، أكبر سوق لقراء هذه المجلة، بعد اندلاع الأحداث الأخيرة، كي نفسخ المجال أمام الجميع ليكتبوا ما شاؤوا، ومن دون أن نسمح لأنفسنا بأي «مسايرة» لمقصد الرقيب.



اليوم تقرّر مجلة الآداب أن تحتجّب عن قرائها مؤقتاً، وهي التي لم تحتجّب من قبل على امتداد ستين عاماً. ولن نعود إلى إصدارها قبل أن نتيقن من أنّ الصيغة الجديدة ستكون قادرة على الاستمرار سنوات طويلة أخرى. لكن، ومنعاً لأي تأويل، مغرض أو غير ذلك، يهمني أن أوضح ما يأتي: المال ليس وراء قرارنا الجديد. فالمجلة كانت خاسرة بشكل شبه متواصل، وهي قلما ربحت أو غطت كلفة إنتاجها طوال أكثر من ثلاثة أرباع عمرها. (وما يزيد من خسائرها منذ سنوات طويلة وجود «مقاولين» يتعاونها بأزهد الأثمان من السوق ثم يبيعونها اشتراكات مؤسساتية إلى الجامعات والمعاهد). ولهذا، فإنّ افتتاحي هنا ليست دعوة إلى «الإنقاذ»، ولا إلى المزيد من الاشتراكات. إنها عرض للواقع كما هو فحسب.

إنّ دار الآداب، الممولّ الأول والأخير والوحيد لمجلة الآداب، ورقاً وطباعةً وأجور تحرير وتأليف وترجمة وبريد وشحن وتخزين واتصالات وموقع إلكتروني...، قادرة على أن تواصل إصدارها ستين عاماً قادمة. فهي دار ناجحة، بل متفوّقة بكلّ المعايير، على ما يشهد القاصي والداني. وهي ابنة بارّة بأمها التي أنجبتها، وأمّ وفيّة لابنتها التي رعتها. المشكلة هي أنّ عدد قراء مجلة الآداب، وعدد قراء باقي المجلات الثقافية الورقية المستقلة، يسير في منحى تراجعٍ منذ سنوات، مع بعض الاستثناءات في هذا البلد أو ذاك، ولإصدارات محدودة من هذه المجلة أو تلك في كل الأحوال. وهذا ما يستدعي طرح الأسئلة الآتية:

ما معنى إصدار مجلة حين يتراجع القراء؟ وهل الإصرار على إصدارها بطولها واجبة، أم إضاعةً لجهدٍ كان يمكن أن يُصَرَّفَ في مواضعٍ أخرى قد لا تقلُّ أهميَّةً ومردودًا ثقافيًّا ونهضويًّا وانتشاريًّا؟ وما معنى أن تواجه مجلةٌ ورقيةٌ حكمَ الاستبداد والقمع والتخلف حين لا يستطيع المواطنون الخاضعون له الحصولُ عليها - ولو عبر الاشتراك المباشر أحيانًا (في بعض البلدان فتحوا ظروفَ المجلةِ وصادروا الأعدادَ رغم أنها مرسلَةٌ إلى مشتركين)؟ هذه أسئلةٌ جوهريةٌ، لا تخصُّ الآدابَ وحدها، بل تطولُ كلَّ منبرٍ ثقافيٍّ مستقلٍّ يرفض أن يبيع نفسه لسلطة المال. وكما أنَّ المسألة ليست مسألةً ماديةً، فهي أيضًا ليست مسألةً سوءِ إدارةٍ، بدليل أن كلَّ المجلات الثقافية الأخرى، المستقلة حقًا أو زعمًا، توقفت على الرغم من أنها اتهمتْنا بسوء الإدارة. فماذا فعل أصحابها الشاطرون؟ أنفقوا ما حصلوه من هذا الممولِّ أو ذاك على بضعة أعدادٍ خلال أعوامٍ قليلةٍ، ثم توقفوا عن الإصدار!



بشكل أوضح نسأل أسئلةً متصلةً بما سبق: هل من مستقبلٍ للمجلة الثقافية الورقية (وربما للكتاب الورقي أيضًا - لكن هذا موضوعٌ آخر)؟ هل تستطيع المجلة الثقافية الورقية أن تصدرَ مستقلةً، مناضلةً، حرةً، مشاكسةً، غاضبةً، ثم تمرُّ بلا عقاب إلى ممالك الاستبداد وجمهوريات القتل؟ هل تستطيع أن تنافس الملاحق الثقافية التي باتت تصدر مع كلِّ جريدة تقريبًا (وكُلُّها ممولٌّ أو مدعومٌ من خارجها)، أو تنافس مجلات وزارات «الثقافة» والإعلام العربية التي كرسَتْ ملايين الدولارات لاستقطاب الأسماء الكبيرة من كتابٍ ورسميين ومخرجين ولترويج تاريخها القطري «العريق» في سيورة الحضارة البشرية؟ هل تستطيع جذبَ المواطن العربي بعيدًا عن التلفزيون والفيسبوك والتويتير والفهاء ورجال الدين، فضلًا عن المشعوذين والدجالين وقارئي البخت والمنتبئين بأحوال العام الجديد؟ وإذا لم يكن للمجلة المستقلة من حليفٍ في أوساط الناس، فكيف ستصمدُ، وكيف ستواجهُ، وكيف ستزدادُ انتشارًا، وكيف ستتطورُ مادةً وتصميمًا ورؤيةً استشرافيةً؟



أقول، إذن، وداعًا؟ بل نقولُ إلى اللقاء. إلى اللقاء في صيغةٍ قد تكون إلكترونيةً، تتحايَلُ على الرقابات، وتنتشرُ بشكلٍ أعظم، إلى أن نبلغَ الزمنَ الذي نستطيعُ فيه أن نعيدَ إصدارها بشكلٍ ورقيٍّ أيضًا حفاظًا على تاريخها المديد و«تضامنًا» مع كثيرين لا يفقهون لغة الكومبيوتر وأخواته. أمَّا على المستوى الشخصي، فسأعمل في هذه الأثناء على إنجاز المعجم العربي الضخم، وعلى كتابة المزيد من الروايات الموجهة إلى الأطفال والناشئة (الفئة الأخيرة هي الأكثر غيبًا في الوطن العربي). وستكون الآداب، حين تصدر في عهدها الثالث، كما يريدُها محبوبها، وكما أرادها مؤسسها ومراسلُوها وقراءُها الأوفياء: صوتًا صادقًا للعدالة والحريَّة، يجمع - إلى أصالة الانتماء - كفاءة الوصول إلى أوسع فئات الناس.